

صور من أساليب القصر والإيجاز والإطناب في شعر الشيخ عبد القادر بن المصطفى التوردي.

إعداد

الدكتور: أبو بكر ثاني علي

قسم اللغة العربية والدراسات الإسلامية، الجامعة الفدرالية غسو، ولاية زَمْفَرَا- نيجيريا

المقدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد خير عباد الله أجمعين، وعلى آله الطيبين الطاهرين، ومن تبعهم بإحسان واستن بسنتهم إلى يوم الدين. أما بعد: فإن التراكم الكلامية تتفنن- على الرغم من تفاوتها واختلاف مناهجها- إلى فنون بلاغية مختلفة: البيان، والمعاني، والبيديع، على أن المعاني منها يتراوح بين عديد من الظواهر المتنوعة، والأساليب المتشعبة من بينها أساليب: القصر، والإيجاز، والإطناب.

هذه المقالة بعنوان: "صور من أساليب القصر والإيجاز والإطناب في شعر الشيخ عبد القادر بن المصطفى التوردي" عبارة عن عدة صفحات تناول فيها الباحث تعريف ظاهرة القصر، والإيجاز، والإطناب، ثم تتبع بعض نماذج هذه الظواهر البلاغية من ديوان الشيخ عبد القادر بن المصطفى، ودرسها داسة تحليلية.

هذا، وقد جاءت المقالة مشتملة على النقاط الآتية:-

- النقطة الأولى: التعريف بالشاعر.
- النقطة الثانية: أسلوب القصر.
- النقطة الثالثة: أسلوب الإيجاز.
- النقطة الرابعة: أسلوب الإطناب.

النقطة الأولى: التعريف بالشاعر.

نسبه:

هو عبد القادر بن المصطفى بن إبراهيم بن موسى بن علي بن جبّ بن عال بن محمد بن أيوب بن ماسران ، فهو سبط للمجدد الشيخ عثمان بن فودي - رحمه الله- من جهة خديجة إحدى بنات الشيخ من زوجه " غابد"١، فينتهي نسب أبيه إلى ماسران، الجد الثالث بعد جكل، وهو من قبيلة تورب، ويكنى عبد القادر بن المصطفى بـ"طن تفا" نسبة إلى أبيه٢. وقد أفادت الوثائق التاريخية أن الشيخ عبد القادر بن المصطفى توردي النسب والقبيلة، فينتسب إلى أكبر فرع من فروع القبيلة الفلاتية، المعروف بـ"تورب"، وهم من "فوت" أحوال الفلاتيين جميعهم. وأما أسرته فينتهي ابن المصطفى إلى أسرة ذات عراقية مجيدة ، تضم كثيرا من الأسر والعشائر، تنتهي إلى الصحابي الجليل عقبة بن نافع الفهري؛ وعقبه هذا هو ذلك الصحابي المجاهد الذي فتح بلاد الغرب زمن عمر بن العاصي في مصر. والحاصل أن عقبه تزوج بنت ملك قبيلة من قبائل الفلاتيين اسمه "بجّ مع" ، وفدت هذه القبيلة إلى عقبه وجماعته وأسلم ملكها، فولدت له الفلاتيين حيث تكلموا بلغة أمهم دون لغة أبيهم، لقلّة من يتكلم بها آن ذاك، واللغة الفلاتية هي اللغة الأصلية لـ"تورب" {TOROBBE} ليس لهم غيرها. وُلد الشيخ عبد القادر بن المصطفى عام ١٨٠٤م، وهو واحد من الشخصيات البارزة في عصر الجهاد.٣

نشأته وتعلّمه:

نشأ الشيخ عبد القادر بن المصطفى تحت رعاية والديه نشأة علمية أدبية، ونبغ من بين مجتمع فاضل، عني بالتعلّم والتعليم والتأليف، ذلك المجتمع الفودوي الذي انشغل بالحركة الإصلاحية الجهادية، ولم تكد تلك الظروف العويصة التي عاشها المجتمع تعرقل ابن المصطفى عن القيام بالتعلم والتعليم، وبالجهود الفعالة من نشر الإسلام والثقافة الدينية.٤

هذا، وتلقى العلم والفنون عن جماعة من العلماء الذين يشار إليهم بالبنان في عصره، منهم والده الشيخ المصطفى التوردي، وأمير المؤمنين محمد بلو، والشيخ محمد البخاري بن

الشيخ عثمان رحمه الله تعالى، كما تتلمذ عليه كثير من التلاميذ، فتخرج في حلقاته العلمية عدد كبير من العلماء، منهم الشيخ ابن إسحاق، وأكبر أبنائه المعروف بـ" مؤ الله يط"، وابنه أحمد البكاء.^٨

وألف الشيخ عبد القادر بن المصطفى كتباً ورسائل ومقالات، تعالج كثيراً من الموضوعات الدينية، والأفكار الأدبية، منها رسالة "مسامرة الحبيب ومسيرة الصالح"، و"العهد والمواثيق"، و منها ديوانه. وتوفي الشيخ عبد القادر بن المصطفى ودفن ببلد "وُزْنُو"^٩.

النقطة الثانية: أسلوب القصر.

سوف يتناول الباحث في هذه النقطة حدّ القصر وطرقه ونماذجه في ديوان الشاعر بن المصطفى.

أولاً: تعريفه.

القصر في اللغة: الغاية، وهو القُصار والقُصاري، قال العباس بن مرداس:

للهِ دركٌ لم تمنى موتنا... والموتُ، ويحكُ، قصرُنا والمرجُ. وهذا قصرُك أي أجلك وموتك وغايتك. واقتصرَ على كذا أي قنع به. واقتصرَ على أمري أي أطاعني. والقصرُ: كفك نفسك عن شيء، وقصرتُ نفسي على كذا أقصرها قصراً.^{١١}

والقصر في الاصطلاح: تخصيص شيء "صفة أو موصوف" بشيء "موصوف أو صفة" بطريق مخصوص.^{١٢}

ويتكون هذا النوع من الأسلوب عن طريق وسائل تتمثل في النفي والاستثناء، وإنما، والعطف بلا أو لكن أو بل، وتقديم ما حقه التأخير.^{١٣} وهذه الوسائل هي طرقه، وهو من أنماط الكلام التي يصطبغ بها الأسلوب عند الشاعر عبد القادر بن المصطفى، وقد نوع في استخدام ألوان من أساليب القصر، حسب الوسائل والأحوال للحكم على ما احتوى عليه الأسلوب بإثباته، أو نفيه عما سواه.

أقسام القصر:

أ- القصر الحقيقي ما كان تخصيص الشيء بالشيء فيه بحسب الحقيقة وفي نفس الأمر بمعنى عدم مجاوزة الأول والثاني إلى غيره أصلاً.

ب- والقصر الإضافي ما كان التخصيص فيه بحسب الإضافة إلى شيء آخر بمعنى عدم مجاوزة الأول الثاني إلى شيء آخر معين وإن أمكن أن يتجاوزه إلى غيره.

ج- قصر الموصوف على الصفة هو ما لم يتجاوز الموصوف فيه تلك الصفة إلى غيرها "من جميع الصفات في الحقيقي أو صفة معينة في الإضافي" مع جواز ثبوت تلك الصفة لغير الموصوف.

د- وقصر الصفة على الموصوف هو ما لم يتجاوز فيه الصفة ذلك الموصوف إلى موصوف آخر "أي كل موصوف في الحقيقي أو بعض معين في الإضافي" مع جواز أن يكون لذلك الموصوف صفات أخرى.

و- القصر الإدعائي ما كان القصر الحقيقي فيه مبنياً على الإدعاء والمبالغة بتنزيل غير المذكور منزلة العدم وقصر الشيء على المذكور وحده.^{١٤}

تقديم ما حقه التأخير.

فمما يمثل القصر الحقيقي في الديوان الإتيان بقصر صفة على موصوف مستخدماً أسلوب ما حقه التأخير في قوله:

فالحكم للمولى وليس لغيره * وله التصرف خفية وعلانية^{١٥}

والشاهد في البيت قوله: " وله التصرف " فهو قصر صفة على موصوف أتى على أسلوب تقديم ما حقه التأخير، وهو شبه جملة " له " على ما حقه التقديم، وهو " التصرف "، والشاعر ينتخب ذلك للإفصاح عن حقيقة واضحة لا يحوم بها ريب ولا شك، وهي إثبات

التصرف المطلق في الشئون الظاهرة والباطنة الحسية والمعنوية للحق وحده، ونفي ذلك عمّن سواه.

ومما يدل على براعة شاعرنا في الميدان البلاغي افتتاح البيت بالأسلوب الخبري، الواقع في جملة " فالحكم للمولى" وتأكيدا بجملة النفي " ليس لغيره " ثم أعقبها بأسلوب القصر، ولساخة قدمه في الذوق النحوي ختمه بجملة حالية.

ومنه قوله:

بك الاستعانة فيما بليت * به من معانات قومي وثغر^{١٦}

والشاهد قوله "بك الاستعانة" قصر صفة على موصوف جاء على أسلوب تقديم ما حقه التأخير، فتقدم الجار والمجرور وهو الخبر على المبتدأ يشعر بقصر الاستعانة على الله، ونفيها عمّن سواه سبحانه وتعالى، فهو الوحيد المستغاث به في كل ما يبتلى به مخلوق.

العطف بـ " لكن "

منه قوله:

فحق لعيني وقلبي جميعا * عليه احتراق وسخّ بدم

وأرثي عليه بنثر الكلام * وعقد النظام برسم القلم

ولكن رضيت بحكم الإله * وأمر المهيمن فهو الحكم

والشاهد في البيت قوله: "ولكن رضيت بحكم الإله"، إخبار من الشاعر أن فقد الحبيب يستوجب لوعة القلب حزنا، وسكب العين للدموع أسمى ووجدا، كما يحرك ذلك عاطفة الشاعر لإنشاء الكلام المنثور، ونظم الشعر رثاء عليه، فهو نماذج من نماذج قصر الموصوف على الصفة بواسطة العطف بـ " لكن "

وقد اختار الشاعر العطف بـ"لكن" لتخصيص الرضى على حكم الإله فقط، مستدركا أنه مع كل ما تقدم لا بدّ من التسليم والإنقياد لقضاء الله والتفويض لشأنه، فهو كما يبدو قصر موصوف على صفة.

النقطة الثالثة: أسلوب الإيجاز.

الإيجاز لغة: من وجز الكلام وجازة، وأوجزه: اختصره، ويقال: أمر وجيز وكلام وجيز: أي خفيف مقتصر.^{١٧}

والإيجاز اصطلاحاً: هو أداء المقصود من الكلام بأقل من عبارات متعارف الأوسط. وهو نوعان: إيجاز قصر، وإيجاز حذف، وأما إيجاز القصر فهو ما ليس فيه حذف، وأحسن مثال له قوله تعالى: {ولكم في القصص حياة.....} (سورة البقرة، الآية: ١٧٩)، فليس في الآية حذف مع أن المعنى زائدة على ألفاظها، فالمقصود أن الإنسان مهما أيقن أنه إن قفل قتل، كان ذلك داعياً قوياً يكفّه عن الإقدام على القتل، فارتفع بالقصص سفك دماء الناس بعضهم لبعض ظلماً.^{١٨}

ومن هذا المنطلق ينظر نظرة أخرى في التركيب، فإن زادت معانيه على ألفاظه في الكثرة كان إيجاز قصر ما لم يكن فيه حذف، وإلاّ، فهو إيجاز حذف، والإيجاز قد شد به شاعرنا عبد القادر بن المصطفى كثيراً من عباراته في الديوان، وضمّتها معانٍ مطنّبة في ألفاظ قصيرة مختصرة.

الإيجاز بالقصر في شعره:

ومن نماذج ذلك قوله:

سل الغوابر عنهم في وقائعهم * هل يصبرون ونار الحرب تلهب

بتأمل البيت تأملاً جيداً يدرك القارئ أن في البيت عبارات موجزة ضمّنت كثيراً مما دار

خلال الحروب التي جرت بين جماعة "الشيخ" وجماعة "عُوْبِر".

وقوله: " سل الغوiber عنهم في وقائهم " إنشاء طلبي في أسلوب الأمر الالتماسي، فالشاعر يجرد عن نفسه مخاطبا خياليا، يخاطبه ويلتمس منه الاتصال بالغوiber، وأن يستبصر منهم عن الوقائع التي دارت بين جماعة الشيخ عثمان بن فودي رحمه الله وبين جماعة "غوiber"، وقوله: " هل يصبرون ونار الحرب تلهب " تصوير إنشائي في أسلوب الاستفهام الإنكاري، دلالة على حماسة الشيخ في اللقاء عند الوغى، كما يوحي الأسلوب على جزع جماعة "غوiber"، فلا يصبرون، ولا يستطيعون تحمّل حرارة النار التي تسعرها الحرب، ولا مقاساة القضايا الطارية.

ومنه قوله:

فيا رزء كل المسلمين لفقده * فقد عمت البلوى به كل عالم

يتبنى الشاعر هذا الأسلوب في سياق الحديث عن مرثيته على الشيخ عبد الله بن فودي رحمه الله تعالى، فيتراءى للقارئ الممعن النظر في البيت ما فيه من التضمين الجيد، حيث ضمّن الشاعر البيذت عدة معان تستحق كلّ منها للاستقلال بعبارات مفصلة، ولكنه استكفى عن ذلك بوجازة التعبير المؤدي إلى بلاغة القول إذا طابق الحال ولاءم المقام.

ومنه قوله:

ولقد رضينا بالقضاء وحكمه * فالخلق مجرى للقضايا الطارية

يعمد الشاعر في البيت الإيجاز بقصر العبارات وتطويل المعنى، فهو يبرهن على لزوم هذه الشعية الدينية كل الناس، وهي التسليم لقضاء الله وقدرته، فكل الأنام عرضة الأقدار والعوارض.

ومنه قوله:

بان الحبيب وحالت دونه الحجب * وأصبح الحبل وهنا منه والسبب

وخلال تنوعه الأساليب مال إلى صياغة ضرب من ضروب الإيجاز، وهو الإيجاز بالاختصار.

النقطة الرابعة: أسلوب الإطناب.

الإطناب في اللغة والاصطلاح:

الطَّاء والنُّون والباء أصلٌ يدلُّ على ثبات الشَّيء وتمكُّنه في استطالَةٍ. من ذلك الطَّنْبُ: طُنْبُ الخِيَامِ، وهي حبالها التي تشدُّ بها. يقال: طَنَّبَ بالمكان: أقام. والإطنابة: المظلة، كأنها إفعالة من طَنَّبَ ; لأنَّها تثبت على ما تُظلِّله. والإطنابة: سَيْرٌ يُشدُّ في طَرْفِ وَتَرِ القوس. وأطنب في الشَّيء: إذا بالغ، كأنَّه ثبت عليه إرادة للمبالغة فيه. ويقولون: طَنَّبَ الفرس، وذلك طول المَتَنِ وقوَّته، فهو كالطَّنْبِ الَّذِي يَمَدُّ ثُمَّ يُثَبَّتْ به الشَّيء. وكذلك أطنبت الإبل، إذا تبع بعضها بعضها في السَّير. وأطنبت الرِّيحَ إطناباً، إذا اشتدَّت في غبار. ومعنى هذا أن ترتفع الغَبْرَةُ حتَّى تصير كالإطنابة، وهي كالمظلة.^{٢٠}

وفي الاصطلاح: أداء المقصود من الكلام بأكثر من متعارف الأوساط.^{٢١} وهذا النوع من الأساليب التي يخلق منها معانٍ راقية قصد بها التفصيل بعد الإجمال، وخاصة في أغراض الرثاء، والمدح، والوصف، الأغراض الشعرية التي احتظت بحظٍ أوفر في الديوان. فإذا أجمل بأن المولى عزَّ وجلَّ قد تفضَّل على المسلمين بالحسنى، ومدافعتهم عنهم بقوله:

حمداً وشكراً لمولانا بما صنعنا * للمسلمين من الحسنى وما دفعنا

فقد فصل ذلك مباشرة في قوله:

إذ أيد الدين بالنصر المبين وبالـ * فتح المبين فذلَّ الكفر واتضعنا

وحلَّ أهلوه في دار البوار وفي * مهواة هلك عليها جندهم وفعنا

أجاد الشاعر في تفصيل ما أجمل من الخيرات التي أنعم الله بها على الأمة المسلمة، والمقام مقام الشكر والثناء، وهو من الموقف الكلامية التي يتشكَّف فيها المخاطب إلى شيء من الإيضاح والتفصيل، فيؤدي ذلك إلى الإطناب بالألفاظ إطناباً غير مخلٍّ بالقول.

ومما يمثِّل ذلك إجماله في ذكر ما يتصف به أمير المؤمنين محمد بلو من الأخلاق

الرَّضِيَّة والخصال الحميدة في بيت من الشعر فقال:

ذاك الأمير محمد فخصاله * محمودة في سائر الأشياء

مقدمة جيدة تتشوّق بها نفس المخاطب منتظرة سرد بعض ما أجمل من المواصفات في

نوع من التفصيل، فحسن قد استجاب لذلك الشاعر قائلًا:

وله مناقب جمّة معلومة * خذ بعضها بالعدّ والإحصاء
فأجلها نور الهداية والهدى * وكمال نيل الحظ في العلماء
وكذا الخلافة والعدالة والسخى * وبلاغة في النثر والإنشاء
وجهاده الأعدا كذا تأييده * بالنصر والتمكين في الأرجاء
والرأي والتدبير فيما ينبغي * وزهادة في المال والأزياء
وعفاهة وسماحة وبهاءه * وكماله في الرأي والآراء
وله الشهادة إذ توفي ثاويًا * برباطه فيعيد في الشهداء

تفصيل محكم لما أجمل من النعوت والصفات التي يتحلّى بها المرحوم الأمير محمد بلو، ساقها الشاعر في أساليب بلاغية مختلفة: خبرية، وإنشائية، وتفصيلية، مستخدما في ذلك الألفاظ المعجمية الموحية، الدالة على إثرائه اللغوي، وذوقه المعجمي، متمثلا في استعماله لكلمات: "مناقب" فلم يقل بدلها "منازل"، و"جمّة" فلم يستخدم مكانها "كثيرة"، و"نيل" فاستغنى بها عن "وجود"، وكذلك استغنى بـ"السخى" عن "الكرم" و"العطاء".

والملاحظ أن لكلّ من الإيجاز والإطناب سمّوه التعبيري، ورقبه البلاغي، إذا ناسب المقام واستدعاه الحال، فلا يقل أحدهما بلاغة ما لم يخلّ بشروط الرقيّ الأسلوبية.

الخاتمة.

وصولاً إلى النهاية، فقد تناولت المقالة نبذة تاريخية للشيخ عبد القادر بن المصطفى التوردي، ورد فيها تحليل بعض الظواهر البلاغية في علم المعاني، تنحصر في القصر والإيجاز والإطناب، حيث قام الباحث فيها بإلقاء ضوء حول تعريف كل ظاهرة، ثم أخذ طائفة من نماذجها الواردة في بعض شعر الشيخ عبد القادر بن المصطفى التوردي، وحللها تحليلًا بلاغيًا.

وقد توصل الباحث من خلال ذلك على نتائج منها:

١. أن أشعار الشيخ عبد القادر بن المصطفى من الإنتاجات الشعرية التي تتضمن من خلال أساليبها قضايا بلاغية قيّمة.

٢. أنّ أسلوب القصر والإيجاز والإطناب من الظواهر المعانيّة الكامنة في أشعار ابن المصطفى.

٣. أنّ دراسة أمثال هذه النصوص الشعرية ممّا يساعد الباحثين على التّدرب بتدوّق النصوص تدوّقا أدبيّاً بلاغيّاً.

وفي آخر المطاف يودّ الباحث أن يوصي ويقترح على الباحثين بأن يواكب في خدمة أمثال هذا التراث العلمي الأدبي لأسلافنا أدباء هذه القارة الإفريقية، فيخدموها دراسة، أو شرحاً، أو تعليقا، أو تحقيقاً.

الهوامش والمراجع:

- ١- د. سركي إبراهيم، عبد القادر بن المصطفى، حياته ومؤلفاته النظرية، ط ١، عام: ٢٠٠٣م، (ص ٤٨)
- ٢- ابن فودي، الشيخ عبالله، كتاب النسب، مخطوط، يوجد بدار الوثائق التاريخية للوزير جنيد، (ص: ٥)
- ٣- ابن فودي، الشيخ عبدالله، المصدر السابق، {ص ١}
- ٤- أغاكا، أ. د. عبد الباقي شعيب، أساليب بلاغية في ديوان الشيخ عبدالله بن فودوي، (ص ١٧)
- ٥- ابن فودي، الشيخ عبد الله، المرجع السابق، (ص ١-٢)
- ٦- مقابلة شخصية بالشيخ محمد الأمين بن محمد الطاهر سالمي، في منزله بسالمي، ٢٠٠٦\٣\٢٠م،
- ٧- د. سركي إبراهيم، المرجع السابق، ص: ٣٩
- ٨- المرجع السابق، ص: ٤٠
- ٩- المرجع السابق، ص: ٢٩
- ١٠- الشيخ محمد الأمين بن محمد الطاهر سالمي، المرجع السابق.
- ١١- الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي، كتاب العين، دار ومكتبة الهلال، ج ٥، ص: ٥٧
- ١٢- القزويني، محمد بن عبد الرحمن بن عمر، أبو المعالي، جلال الدين، الإيضاح في علوم البلاغة، دار الجيل - بيروت، ط ٣، د. ت. ج ٣، ص: ٤
- ١٣- القزويني، المرجع السابق، ج ٣، ص: ٢١

١٤ - القزويني، المرجع السابق، ج٣، ص: ٦

١٦ - عبد القادر بن المصطفى، المرجع السابق، ص: ٢٣

١٧ - ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين بن محمد بن مكرم، لسان العرب، ج٥، ص: ٤٢٧

١٨ - الصعيدي، عبد المتعال، بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، مكتبة الآداب- القاهرة، بدون تاريخ، ج٢، ص: ٩٦

١٩ - القزويني، المرجع السابق، ج٣، ص: ١٨١

٢٠ - ابن فارس، أبو الحسين أحمد بن زكرياء القزويني الرازي، معجم مقاييس اللغة، دار الفكر، ت. عبد السلام محمد هارون، عام النشر: ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٢١ - الصعيدي، المرجع السابق، ج٢، ص: ١١